فلسفة التربيـــــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٦ —

« كاد المعلم أن يكون رسولا ..! » « شوقى »

« إنما الصعوبة هى في إيجاد أولئك الأساتذة الأفضل الذين يستطيعون أن يحملوا الشعلة وأن يناولوها غيرهم بجرأة وحماس وإخلاص وإقدام . ! »

« قد نبني المدارس وننفق فى تشييدها وإعدادها ملايين الجنيهات، ولكنا قد نعجز مع ذلك عن تكوين الرجل المنشود! »

« أفضل النظم جدير بالفشل التام إذا لم يقم بتنفيذه من هو كفؤ له . ! » « من رسالة الدكتور جاكسون »

٦ — المعلمون

رأيت فى المقال السابق بعض أسباب فشل النظام فى المعاهد الدراسية وتبينت أثراً لمسئولية النظار والمدرسين فى ذلك الشأن. وسنرى اليوم ناحية أخرى لها من الخطورة والطرافة في عمليـة التربية ما يجعلنا نهتم بها كل الاهتمام ، ونصرح فيهـا بأشياء ما كنا لنذكرها لولا حرصنا على المصلحة العامة ، ولولا أملنا فى أن يقابل الجميع الحقائق — على مرارتها — بصـدر رحب وتقدير نزيه :

١ — حقائق

قال المرحوم شوقى بك :

قم المعـلم وَفِّـه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا !
أعلمت أشرف أو أجل من الذى يبنى وينشىء أنفساً وعقولا !

وأحسب أن معنى ذلك الشعر العـذب واضح لا يحتاج إلى بيان ، وصادق لا مبالغة فيه ولا تهويل ! فترى هل يشعر المعلم عندنا بكل ما فيه من معنى ؟ أو هل تساعده الظروف على أن يتمثل به ويحققه فى حياته الخاصـة والعامة ؟ ذلك هو السؤال العسير الذى فكرت فيه كثيراً وتألمت من أجله طويلاً ، ولست أدرى متى يقف تفكيرى فيه وألمى من أجله !!

إن المعلم أيها القارىء هو الطرف الأول فى عملية التربية والتعليم ، فإذا لم يستطع أداء عمله كما ينبغي فقل على الأمر السلام !

فترى هل يجوز أن يكون ذلك الطرف مجرد ناقل علم فحسب، ما إن يدخل الفصل حتى يتكلم ويتكلم ، ويكتب بالحـكك ويكتب، ثم يخرج ويدخل هكذا كل يوم ويخرج ، دون أن تقوم بينه وبين الطلبة عاطفة من ود ولا وشيجة من إخاء ؟؟

وترى هل يجوز أن يكون ذلك الطرف متبرماً من عمله ، ساخطاً عليه ، ثائراً على القدر الذى ابتلاه به ، حاسداً لنظرائه فى المهن الأخرى حيث الراحة والجاه ، والـكسب الوافر والنعيم الموموق[1] ؟ ؟

وترى هل يجوز ألا يقبل ذلك الطرف على تلك المهنة الخطيرة إلا مضطراً لا ميل يدفعه ، ولا غرام يحببه ، بل هى الوظائف قد أقفلت بعد الجامعة أبوابها فى وجهه ، وهو « المعهد » قد فتحها

مصر من الغرب والجنوب ولذلك كان فتح بلاد المغرب

وكان العرب يقنعون بمـا يصيبونه من الأسلاب والغنائم وظلوا على ذلك حتى تحولت وجهة نظر الخلفاء ، فأخذوا يهتمون بأمر بلاد المغرب بوجه خاص، فأرسلوا إليها الجند للمحافظة عليها، وقلدوا ولايتها ولاة مستقلين فى الحـكم عن أمراء مصر أو نائبين عنهم فى حكم هذه البلاد إذا جُمع بين مصر والمغرب لوال واحد[1]

وقد قام المصريون بدور هام فى الغزوات البحرية فى هذا العصر ، فقد بنى مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) فى جزيرة الروضة داراً لصناعة السفن وإصلاحها . وكان لبناء هـذه الدار فوائدها فى حروب مصر البحرية ، فقد غزا رودس الأسطول المصرى، جهزه عقبة بن نافع سنة ٤٦ هـ وتم له فتحها سنة ٥٣ هـ ولما جاء عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) أصبح لمصر أسطول قوى شارك أسطول الشام فى غزو القسطنطينية وإن كانت هذه الغزوة قد عادت على الأسطولين المصرى والشامى بالفشل

ولقد خاض الجند العرب غمار الفتن السياسية التى قامت في هذا العصر بين الخلفاء الأمويين والخارجين عليهم ، وكذا بين بنى العباس ومناوئيهم ، وكان لتدخلهم أثر ظاهر فى هذه الفتن .

حسن ابراهيم حسن

(١) جمع مسلمة بن مخلد والى مصر الصلاة والخراج والمغرب فأقام بمصر وبعث مولاه أبا المهاجر ديناراً عنه فى المغرب ، وذلك فى خلافة معاوية بن أبى سفيان

(١) أذكر أنى كنت أستمع يوما مع بعض الزملاء إلى محاضر يتحدث عن حياة الأرواح فى العالم الآخر ويقرر أن هناك مدارس ومعلمين ، فما كان من الزملاء إلا أن ضجوا وتبرموا خيفة أن يكون نصيبهم بعد الموت هو تلك المهنة الشاقة التى ملأت عليهم حياتهم هما وشقاء وعسراً ونصباً !!

ورحب به نائماً وآكلا ودارساً دون ما أجر[1] ؟ ؟

وترى هل ينبغي أن يكون « بعض » هذا الطرف في المدارس الأهلية ، وهي لا تقل عن مدارس الحكومة في عدد طلبتها ، مجرد طالب عيش لا يفقه من أمور التربية شيئاً ، ولا يدري عن طبيعة الطفل قليلا ولا كثيراً ، ولا يستطيع إلا أن يرسل القول محفوظاً ، فلا عقلا يكوّن ، ولاشخصية يبني ، ولاخلقاً يغرس ، ولا نظاماً يصون[2] ؟ ؟

٢ — أسباب :

تلك حقائق مرة لها خطورتها الكبرى في عملية التربية كما قلنا ، وهناك من الحقائق غيرها مالا يتسع المجال لذكره أو ما لا يليق به أن يذكر !! ، ولما كانت التربية الصحيحة شيئاً آخر غير حشو العقول بالكتابة والقول ، وتنفير القلوب بالجمود واليأس ، وتشويه الشخصية بالجهل والحمق ، فمن الخير أن نتلمس بعض أسباب هذه الحقائق علنا نستطيع أن نجد لها علاجا .

أتعرف ماذا هو عمل المعلم في المدارس الثانوية على وجه الخصوص ؟ أتعرف أنه دروس تُحضَّر ، وحصص تُدرَّس ، وكراسات تصحح ، ثم أعمال إدارية أو كتابية بغيضة يملأ فيها الأستاذ الكشوف بالأرقام المجموعة وغير المجموعة ، ثم ينقلها إلى كشف آخر وكشوف أخرى ، ثم يبعث بها ثلاث مرات في العام إلى أولياء الأمور كما لو كان كاتباً يسجل ويجمع ويكتب كل شيء حتى العنوان ؟ ؟

ثم أتعلم ماهو قدره في عين الدولة والمجتمع بعد كل هذا العناء الذي يبذله ليل نهار ، ومع خطورة وشرف المهنة التي ينسب إليها ؟ ؟

لعلك تدري أن قدره في عين المجتمع دون قدر رجل العدالة أو رجل الطب بكثير؟ هذا ينطق بالحق وذاك يشفي الجسم، أما هو فماذا يفعل غير إلقاء الدروس ؟ وعسير عليك جداً أن تفهم الناس أن التعليم قد يغنينا عن القاضي[1] أو الطبيب دون أن يغني كل من هذين عن الأستاذ . وعسير عليك جداً أن تدخل في الأذهان أن صاحبنا يبني وينشئ أنفساً وعقولاً كما قال أمير الشعراء

ثم لعلك تدري أن قدره في عين الدولة كان وما زال دون قدر رجال القضاء وغير رجال القضاء ؟ وأين المسكين من أولئك وهؤلاء ؟ ألم يخطب يوماً أحد الزعماء ليعبر عن جماعة المعلمين بعثار الجد وسوء الفعل كما لو كانوا جماعة من العمال أو الزراع ؟ أولم يرتفع صوت المعلمين مدوياً طالباً المساواة والانصاف دون أن تستجيب له الحكومات بتلك السرعة وهذه الأريحية التي تستجيب بهما لرجال القضاء أو النيابة أو المحاماة ؟ أولا ينظر المعلم اليوم إلى زميله بالأمس في الدراسة الثانوية فيجده في مجال القضاء يقفز القفزات ، أو في ميدان الجيش يتناول «العلاوات» ، وهو هو في فناء المدرسة تمضي عليه السنون في الدرجة الواحدة ، وتتسع الهوة المالية والاجتماعية بينه وبين زميليه هذين ، إلى حد يخيل إليه أن لاعدل هناك ولا مساواة ، مع أنه يبذل من الجهد ، ويؤدي من الواجب ، مالا يقل قيمة وضرورة وقدراً عن أعمال هذين النديدين العزيزين ؟[2]

قل ما شئت وما لم تشأ في ذنب المعلم وتقصيره ، ولكنك لن تستطيع أن تقول إنه فوق البشر فلا يؤذيه الظلم ولا يميته الاغفال ... ! ثم أنت تنشد بعد ذلك للتعليم إصلاحاً ! أفلا يليق بك أن تتدبر هذا الأمر بنتائجه البعيدة والقريبة قبل كل شيء وبعد كل شيء ؟

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الأميرية

(١) وقد بدأت الوزارة تعمل على إصلاح ذلك الحال باختيار نخبة خاصة من خريجي الجامعة ليلتحقوا بالمعهد .. ، ولكن مما لاشك فيه أن كثيراً من رجال التعليم الحالي لم ينشدوا مهنتهم عن ميل صحيح أو لم يجدوا فيها ماقد يخلق فيهم من الرضاء والارتياح ما يشجعهم على تحمل مشقاتها باسمين والقيام بأعبائها مطمئنين . وحسبك أن تقوم بعمل استفتاء عام كما فعل مرة أحد الزملاء فلن تجد جواب الأغلبية الساحقة خارجا عن دائرة الأسف والسخط والندم واليأس . فهل بهذه الروح ينبغي أن يعمل المعلمون ؟ وهل بمثل هذه الروح نستطيع أن نرجو إصلاحا للأجيال القادمة والحاضرة ؟؟

(٢) لقد رأيت وسمعت من أحوال بعض المدارس الاهلية كل عجيب مضحك. وسأفرد مقال العدد الآتي ان شاء الله لهذا الشأن. ولكني أعترف هنا أن قليلا من حضرات الأساتذة غير الفنيين في هذه المدارس يبذل من المجهود الخصب ما يكشف عن حسن استعداده وقوة خلقه . وجدير بالدولة على أية حال أن تقوم هنا بتصفية سريعة مضبوطة لا لين فيها ولا هوادة ، وأن تدبر بقدر المستطاع عملا لمن لا يصلحون لهذا العمل الفني الدقيق

(١) أثبت الاحصاء أن التعليم يقلل من الجرائم الكبرى أيما تقليل وصدق المثل القائل إن من أقام مدرسة فقد أغلق سجناً ، أو القائل إن من هدم ركناً من أركان الجهالة فقد شيد ركناً من أركان الوطن !

(٢) وقد بدأ فعلا تنفيذ « الكادر الجديد للمعلمين » ولكن الهوة ما تزال سحيقة بين رجال القانون ورجال التعليم . وما زلت أعرف كثيرين قد مضى عليهم أكثر من العشرين عاماً وهم ما زالوا في الدرجة السادسة ، وما زلت أجد حظ المعلم في عناية المدارس مغبوناً إلى حد مروع وأعتقد بعد هذا أن كل إصلاح ينشد منه إذا لم يسو بين المعلم وبين غيره من رجال الدولة تسوية عادلة